

ابراهيم باشا

شخصيته وأعماله

تكلم كثيرون عن ابراهيم باشا وكتبوا عن بطولته فصولاً إضافية واسهبوا في وصف مزاياه العسكرية ولكنهم لم يستطيعوا رسم صورة كاملة لهذه الشخصية العظيمة ومع أن تاريخ ابراهيم باشا مرتبط تمام الارتباط بتاريخ والده محمد علي باشا لأنه لا يمكن التكلم عن أحدهما بدون ذكر الآخر فلو قلنا عن محمد علي أنه القوة المدبرة قلنا الحق أن نقول عن ابراهيم أنه القوة المنفذة ولو وصفنا محمد علي بالسياسي التقدير لقلنا عن ابراهيم إنه القائد الحكيم إلا أن لكل منهما شخصية ممتازة وعمل خاص لا مندوحة عن اظهاره حتى يأخذ كلا الرجلين حقه ويرد الحق إلى نصابه

إن تاريخنا منفصلاً لابراهيم يجب أن لا يقل عن عشرة مجلدات وإن يشتمل على وصف تام للحروب التي اشترك فيها والمعارك التي ادار رحاها والخطط الحربية التي اتبعها والأعمال الإدارية والسياسية التي باشرها وحياته الخاصة وأخلاقه وطباعه وأطماعه وآماله لأن ابراهيم ليس من كبار القواد لا غير . بل هو من أفذاذ الرجال في الحرب والإدارة والإصلاح ولا أكون مبالغاً إذا قلت أنه لو لا حدة طبعه وشدة بطشه لفاق محمد علي في السياسة والدهاء . ومما يمتاز به على محمد علي حبه لجنوده ومشاركته لهم في السراء والضراء وسهره على مصالحهم واغداقه النعم على المخلصين من رجاله والعفو عن مسيئتهم ومعاملته بالرافة وكونه لا يميل إلى التأنق في المعيشة والتظاهر بالفخفة والعظمة ولكنه مع ذلك عالي النفس ، كبير الهمة معجباً بنفسه بخور بأعماله عظيم الآمال ، كبير المطامع . وسأمر في هذه المجالة على تاريخ ابراهيم لعل فيما اكتبه ما يعزى كل مصري على أن يطلب تاريخ هذا الرجل

العظيم كطالب التاريخ الكامل في كتبه العربية والافرنجية وينقش أعماله على صفحات قابه ويجعله نموذجاً لجميع أعماله

ليس لدينا معلومات صحيحة عن طفولة ابراهيم وصيته . ولكننا نعلم يقيناً أنه وهو دون العشرين صدر فرمان سلطاني بتعيينه دفتردارا على مصر . وهذا المنصب من أهم مناصب الدولة بعد منصب الوالي ولتوليه الاشراف العام على شئون البلاد المالية وجباية الضرائب والعشور وتسييد مطلوبات الدولة . ويجب أن يكون صاحب هذا المنصب متضلعا في الحساب والادارة والكتابة والانشاء . فاختيار ابراهيم لهذا المنصب يدلنا على أنه كان على علم كاف بما يجب معرفته في ذاك الزمان . وفي أثناء وجوده في هذا المنصب أوفده والده لمسح أراضي الصعيد وتقرير ضرائبها والقضاء على أسباب الثورة والفتن في تلك البلاد . فقام بهذه المهمة خير قيام . وبعد وفاة أخيه طوسون باشا ، عين واليا على جدة مع قيادة الحملة ضد الوهابيين ومن يعلم شيئا عن نجد والحجاز وجوها الملتهب وفيافيها الشاسعة وجبالهما الوعرة وما عليه الوهابيون من فرط الشجاعة والاقدام واسمائتهم في الدفاع عن عقيدتهم وحرصهم على بقاء الحرميين في أيديهم يدرك عظيم التبعة التي القيت على عاتق ابراهيم . سافر ابراهيم الى الحجاز وهو يعلم انه ذاهب لقتال قوم صناعتهم الحرب لا يتركون سلاحهم ليلا ولا نهارا صيفا ولا شتاء ساما ولا حربا دأبهم الغزو وديدنهم شن الغارات وليسوا بجند منظم يمكن استطلاع خبره وحذر قوته ومعرفة وجهة سيره وهدف رميته . يختبئون في الكهوف والجبال ويتدسون في الاوغال وبين الرمال حتى اذا ظننت الارض خالية منهم وتابعت سيرك مطمئنا اذا بالارض قد ملئت من فرسانهم ورجالهم . واذا أسلحتهم تعمل في جنودك قبل ان تلتقي اليهم أمرا أو تنحوا بهم نحواً فلا تعلم امن السماء نزلوا أم من الارض قذفوا . لا يرهبون مدفعا ولا يخشون بندقية ويرون الموت في الحرب شرقا ومجدا وحشف الانف ذلة وعارا . يصيحون صيحات مرة ارهابا لاعدائهم وتشجيعا لانفسهم . فلو أمكنك رغم هذه

المباغنة أن تلم شعث جندك وتهميتهم للقتال . وأدرك المغيرون أنك ستنال منهم منالاً أطارتهم الريح من أمامك وانشقت الأرض فابتلعتهم فمضوا من من حيث أتوا تاركين ضحاياهم بين قتيل وجريح ذاهبين بما وصلت اليه أيديهم من خفيف المتاع .

فقل لي بربك أيمكن ، والقوم كما ذكرت ، لقائد أن يظهر عليهم في بلادهم ويركز التوية نصره على مشارف معانهم ؟ لم يذكر التاريخ قائداً غير ابراهيم فقد في قلب جزيرة العرب واضطر أهلها الى الخضوع والاستسلام وقد كانوا ينقضون انقضاض النصور على فرانسها فهايتهم أعداؤهم وفتحت لهم الجزيرة أبوابها وأوشك العراق والشام أن يقعاً فريسة لهم وأحجم قواد الدولة العلية في هذين البلدين عن لقاءهم . كل هذا كان يعلمه ابراهيم تمام العلم بل أنه كان يعلم أن أخاه طوسون لاقى الأحوال في حروب الوهابيين الأولى حتى كادوا يظفرون به . فبدلاً من أن يثبط ذلك من عزمه ويفت في عضده لم يزد إلا شجاعة واقداماً فاوغل في قلب نجد ودك حصونها ومعانها حتى وصل الى الدرعية فلم تثبت أمامه إلا بضعة أشهر وفتحت له أبوابها وخضع له عبد الله بن سعود . وانتهت الحرب بما هو معلوم . ورجع بطلنا الى مصر بين حفاوة الشعب واعجاب العالم . فلم يكذب ينقض عنه غبار السفر حتى أوفده والده الى السودان لمساعدة أخيه اسماعيل في اخضاعها وتنظيم حكومتها . وبينما هو قائم بما وكل اليه فاجأة الحمى فاضطر للعودة الى مصر ولكن اقامته لم تطل اذ دعى الى حرب المورة فذهب اليها وكان من بطولته ما صير أوروبا وجعلها تحقد عليه وتتفق على اغراق أسطوله على ما هو مشهور . ولم تنقض سنتان على رجوعه من مورة حتى كلف بغزو الشام وكانت أكبر حرب باشرتها مصر في كل تاريخها دامت تسع سنين وحصل فيها كثير من المعارك الشهيرة وامتد سلطان مصر على فلسطين وسوريا والاضول وشمال الجزيرة وأظهر ابراهيم في هذه الحروب أنه لم يكن قائداً لا غير ، بل كان مصلحاً كبيراً وادارياً حازماً وسياسياً خطيراً وأسر ما يزيد عن عشرين باشا واستولى على

أكثر من ثلاثمائة مدفع وقد أثار إعجاب العالم مقام به في تلك السنين من
الاصلاحات الادارية والزراعية والصناعية رغمًا عن أنها كانت سنين ثورات
وفتن وحروب ولولا ان تعداد ذلك يستغرق المجلدات لبيئت طرفًا منه. وقد
كتب الأفرنج كثيرًا من ذلك ولما وجدت الدول وخصوصًا إنجلترا ان
ابراهيم سيركز رايته في الاستانة وان جميع الممالك العثمانية ستصبح في
قبضة محمد علي وابراهيم وان ذلك يقضى على أطماعها ويضيعها أمام دولة اسلامية
فتية قوية تألبن عليه وحاربته واضطررته الى الرجوع إلى مصر وترك
البلاد التي ليس فيها موضع لقدم لم يرو بدم المصريين ورجع ابراهيم بعد
ذلك حاتقًا غاضبًا وكانت صدمة انهيار صرح آماله عظيمة أودت بصحته فلم
يعش بعد ذلك الا سنوات قليلة قضاها في التداوى. هذه لحظة من حياة هذا
البطل التي لم تدرس حق الدرس كتبها عنها تشير من حمية علماء التاريخ في
بلادنا فيوجهوا همهم نحو هذه الشخصية العظيمة

مؤرخ